هل تضيع فرصة زيارة قداسة البابا إلى العراق ؟

✍ ألأب يوسف حَبي

كانت الاتصالات بالهاتف قبل أشهر من ايطاليا ، ومونتي كارلو ، ووكالات رويتر ، واسبانيا ، وب ب سي وحتى صوت اميركا ... وكان السؤال هو عينه : أصحيح ان البابا لم يعد يزور العراق ؟ وكان جوابي الوحيد : إن سنة يوبيل الألفين لم تنتهِ بعد ... ما الخبر ، ولماذا ؟

لقد كان متوقعا جدا ان يزور البابا العراق في مطلع عام ٢٠٠٠ ، ليبدأ رحلته الإيمانية ، بمناسبة اليوبيل الكبير ، بأور ثم يستمر في زيارة الأماكن المقدّسة الأخرى في مصر والاردن وفلسطين وسوريا واليونان . ولإعداد الحج الى أور قدِم الى العراق وفد ڤاتيكاني مهم في ٢٠ - ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩ ، لكنه عاد بدون جواب ، ثم صدر بعد أيام بيان ڤاتيكاني يعبّر عن اعتذار الحكومة العراقية لعدم إمكانية تأمين الأمن الكافي لقداسة البابا ، مؤكّداً بسبب القصف الامريكي والبريطاني المستمر على جنوب العراق وشماله كل يوم تقريبا . وانتهى بذلك خبر الزيارة بعد ان كانت وسائل الإعلام قد كثّفت الأضواء على هذا الحدث المتوقّع ، وبعد محاولات جهات أمريكية وإسرائيلية لتشديد الضغوط باتجاه منع زيارة البابا إلى العراق ، على حد تعبير جريدة (الرأي) الأردنية مثلاً . فزيارة البابا إلى العراق تُبرز حدثًا إعلاميًا من الدرجة الاولى . فهل ألغيت الزيارة نهائيا ، كما قال وكتب البعض ؟

إضافةً الى الجواب أنّ سنة الألفين لم تنتهِ بعد ، أقول إن الله أعظم واقوى منّا جميعاً .

وأضيف : إن النية الطيبّة التي يتمتع بها عدد غير قليل من الناس ، وعلى رأسهم المسؤولون ، عندنا في العراق ، كما في بلدان اخرى ، والإرادة الفولاذية لدى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ، الذي على الرغم من عمره ووضعه الصحي ما يزال يؤدّي رسالته لا سيّما اليوبيلية والحجيّة على أكمل وجه ، فإني لست متشائما ، وأتوقّع حصول الزيارة ، إن شاء الله . ولكن ... هناك بعض التباسات ، لا بدّ من ايضاحها ، لتسهيل وقوع هذا الحدث العظيم .

أولاً ، قال بعضهم ، وهم أنفار معدودون والحمد لله : من يقول إن أور هذه ، التي في جنوب العراق ، أي تلّ المقيّر ، حيث الزقورة الخالدة والقبور الملكية والبيت الذي أطلق عليه المنقّب الآثاري السر ليونارد وولي اسم «بيت إبراهيم» ، هو الموقع الصحيح على ما جاء في

قداسة البابا يحتضن طفل عراقي / بريشة الرسام نجيب الصائغ

الاسفار المقدسة ؟ ونجيب: ليس لهؤلاء المشككين أدلّة قوية تنفي ذلك ، كما انهم يخلطون بين السرد الكتابي والواقع التاريخي والآثاري المادي، ويصعب عندئذ التحدث وإياهم ، لأننا نتحدث بلغتين مختلفتين . فهم يشدّدون على الحدث في نص هو ديني بالدرجة الاولى ، المهمّ فيه هو مغزاه ورمزيته ، وموجز ذلك : أن إبراهيم المؤمن ، بل أبا المؤمنين ، إنطلق من حيث كان الخلق وبدأت الحضارة والكتابة ليقوم برحلة إيمان في البلاد المعروفة يومذاك ، معلناً اسم الله الواحد . فليست العملية مكانية زمنية ، وليس فعل إبراهيم هروبًا من بلد او اهل او مكان ، ولا يمكن أن تكون حصيلة عمله بلورة فئة عنصرية ، كادّعاءات هؤلاء وهؤلاء . إنه فعلٌ إيماني كبير يجعل من إبراهيم رمز كل مؤمن ، في سائر الاماكن وعبر العصور كلّها .

وادّعى البعض إن رسالة البابا ، التي كتبها قبل بدئه حجّه الديني الى الاماكن المقدسة ، ذات العلاقة بتاريخ الخلاص ، فيها نزعة «منحازة» ، وكأني بهم أرادوا ان يكتب أكبر رجل دين مسيحي في العالم رسالة «غير مسيحية» ، وإلاّ فليقرأوا أيّ تفسير للكتاب المقدّس بخصوص هذا الموضوع ليجدوا أنّ قراءة البابا لم تكن الا في هذا السياق ، وهي قراءة لا تنحاز الى أحد ، او فئة ، أو شعب ، أو دين ، انما تنطلق من وجهة نظر مسيحية لكي تشمل الجميع . وإلا فكيف كان على البابا ان يكتب ؟

واعترض البعض : لماذا قال البابا إن زيارته دينية وهو يزور بلداً يعاني من العدوان وآثار حصار غاشم ؟ وهل الدين بمعزل عن الحياة والواقع ؟ ويؤسفني القول إن هؤلاء لم يفطنوا كثيرا إلى أن زيارات البابا كلّها لم تكن ولا يمكن ان تكون سوى دينية وراعوية ، فهو رجل

دين من الطراز الاول ، إن لم يكن الأول على الإطلاق . ولا يمكن ان تخلو زيارات البابا من الطابع الراعوي ، والمقصود بذلك همّ واهتمام قداسة البابا بمن هم في البلد الذي يزوره ، ومعنى ذلك أنه لا بدّ وان يندّد بالعدوان والحرب ، ولا سيّما بالحصار الجائر ، كما فعل عشرات المرات ، بل نحو ١٢٠ مرة ، خلال هذه السنوات العشر ... فاين الحذر والتوجّس والتخوف ؟

أوّلا يعني التحرك لمنع الزيارة مساعدة العدوان في الاستمرار ، ومواصلة التعتيم الإعلامي على وضع بلدنا وشعبنا والواقع المأساوي واللاإنساني ؟ لا شكّ ان الجميع سيطّلعون على هذا الوضع من خلال سائر وسائل الإعلام التي ستغطّي زيارة البابا إلى العراق ، فتفضح الأكاذيب ، ويتضامن الكثيرون معنا ، وسيعترض حتى الذين يتمنّون الزيارة بكون البابا قد أتمّ ما اراد القيام به باحتفاله بالحج الى أور «روحيا» صباح ٢٣ شباط (فبراير) ٢٠٠٠ ، قبل قيامه بأيّ حج الى «الأماكن المقدّسة» ، فهل يعود ليقوم بزيارة قد أتمّها ؟ وأقول ، وقولي هذا أمنية بل دعاء : للبابا أن يختم حجّه الديني إلى الأماكن المقدّسة بالمكان الاول لإيماننا المشترك ، مسيحيين كنا أو مسلمين أو يهودا أو أي مؤمنين بالإله الواحد الحيّ ، والختام كالبداية له دلالته التي لا تنتقص قيمته . واستشهد بمقاطع من رسالة قداسة البابا نفسه : «في وسع تقطيع الزمن بالقدسيّات واعتبارها لحظات نعمة خاصة ، كما في وسع المكان أن تؤشره تدخّلات خلاصيّة خاصّة من قبل الله . وهذا هو حدس نلقاه في جميع الديانات ... من هذا المنطلق الديني العام ، يعرض الكتاب المقدس رسالة خاصّة ... لذا فإني ، في منظور الألفية الثانية للتجسّد ، أشعر بشوق كبير للذهاب شخصيًا للصلاة في الأماكن الرئيسة ، التي عرفت في العهد القديم والجديد ، تدخلات الله ... وستكون نقطة الإنطلاق من بعض الأماكن المثالية ... والمرحلة الأولى .. ذات علاقة بإبراهيم . فيطيب لي فعلاً ان أمضي ، إن كانت هذه هي إرادة الله ، إلى أور الكلدانيين ، تلّ المقيّر الحالي في جنوب العراق ، المدينة التي فيها ، حسب ما ورد في الكتاب المقدس ، سمع ابراهيم كلمة الرب التي انتزعته من أرضه ، شعبه ، بمعنى خاص ، لكي تجعل منه اداة تصميم خلاص سوف يشتمل على مستقبل شعب العهد بل وجميع شعوب العالم ... نحو ابراهيم يتطلع ليس اولئك المتحدّرون منه طبيعيا وحسب ، بل أولئك ايضا الذين يعتبرون أنفسهم ذريته «الروحية» ، وهم غفيرون ، لأنهم يقتسمون إيمانه واستسلامه بدون تحفّظ لمبادرة القدير الخلاصيّة » .

إننا ، نحن العراقيين ، من دون تحيّز ومغالاة ، أحقّ من غيرنا في اعتبار إبراهيم أبًا لنا ، وهو ايضا ابن ارضنا وبلدنا وجنسنا ، ونحن الذين أعطينا العالم لبنات الحضارة الاولى وألواح الكتابة الاولى وخلفية التدوين الديني التوحيدي ، يحقّ لنا ان نحتفي في هذه الألفية بإكرام رسول الايمان ، نبّي الله ، والأب الروحي لملايين البشر . وما زيارة قداسة البابا ، رأس الكنيسة الكاثوليكية في العالم والمتقدم بين الكنائس المسيحية كافّة ، سوى تعزيز لهذه الذكرى المقدّسة . فأهلاً وسهلاً به في موطن ابراهيم خليل اللّه ، وليختم بهذه الزيارة يوبيل الألفين الكبير .